

المشاريع الاستعماريّة من خلال المؤسّسات العلميّة الغربيّة منصّات Persee و Cairn و JSTOR نموذجاً

د. محمّد البشير رازقي^١

المُلخَص

يتناول هذا البحث المشاريع الاستعماريّة من خلال المؤسّسات العلميّة الغربيّة، بالاعتماد على منصّات JSTOR ، Cairn ، و Persee نموذجاً، بهدف الكشف عن طبيعة المقاربات الأكاديميّة للظاهرة الاستعماريّة، وتتبع اختلافها بين الإنتاج العلميّ باللغة الإنجليزيّة والإنتاج باللغة الفرنسيّة. وينطلق البحث من فرضيّة مفادها أنّ الاستعمار لم يكن مشروعاً سياسيّاً وعسكريّاً فحسب، بل كان مؤسّسة متكاملةً ارتبطت بشبكات المصالح الاقتصاديّة والمعرفيّة والثقافيّة، وأسهمت المؤسّسات العلميّة، كالجامعات ومراكز البحث والمنصّات الأكاديمية، في إنتاج المعرفة حول المجتمعات المستعمرة وفي تشكيل صورها وتمثّلاتها. كما يبين البحث تعدّد أساليب المشروع الاستعماريّ، من الاستعمار الداخليّ والاستيطانيّ، والتهمجير والاستيعاب، إلى توظيف التعليم والقانون والخرائط والمتاحف والمعرفة العلميّة في ترسيخ الهيمنة. ويخلص إلى أنّ دراسة الاستعمار داخل المؤسّسات العلميّة الغربيّة تكشف استمرار أثره في المعرفة والثقافة والقانون والعلاقات الدوليّة، وأنّ نقد الإرث الاستعماريّ يتطلّب تفكيك علاقات المعرفة بالسلطة والمصلحة الاقتصاديّة. الكلمات المفتاحيّة: الاستعمار، المعرفة، المنصّات العلميّة، الغرب، السلطة.

١. أستاذ تاريخ مساعد في المعهد العالي للعلوم الإنسانيّة/ جامعة جندوبة/ تونس.

المقدمة

أنتج الغرب مؤسسات علمية متنوعة وعديدة كالجوامع ومراكز البحث والمخابر والمنصات العلمية الناشرة للمجلات والكتب. وتعدّ منصة JSTOR الناطقة باللغة الإنجليزية ومنصة Cairn الفرنسية من أبرز المنصات المسؤولة عن نشر المجلات وفصول الكتب في العالم الأنجلوسكسونية والفرانكفونية. تشتمل هذه المنصات على مجمل المقالات المنشورة في مجالات العلوم الإنسانية والاجتماعية من القرن ١٩ إلى اليوم؛ ولهذا فهي محمل أساسي وحيوي لفهم طبيعة المجتمع الغربي ومؤسسات العلمية وطريقة تفكير باحثيه، وحالة البحث لديهم. وفي هذا السياق، سوف نسعى في هذا البحث للنش عن الدراسات المتهمة بالاستعمار في هذه المنصات وتتبع أساليب مقارنة هذه الظاهرة وطرق البحث فيها وعنّها وحولها، ومحاولة فهم الفرق بين البحوث المكتوبة بالإنجليزية والأخرى المحررة بالفرنسية. وتتخلل البحث إشكالية أساسية وهي: كيف تمت مقارنة الظاهرة الاستعمارية من خلال منصات المجلات العلمية الغربية؟ وما هو الفرق بين المقاربة الفرنسية والمقاربة الأنجلوسكسونية للظاهرة الاستعمارية؟ وهل يمكن أن تبين لنا الدراسات الأكاديمية العلمية طبيعة الرهانات السياسية والاقتصادية المتخفية وراء الظاهرة الاستعمارية؟

المشاريع الاستعمارية الغربية من خلال منصة JSTOR

احتوى موقع JSTOR على ٣١٥,٦٣٨ مقالاً يحيل مباشرة إلى كلمة استعمار Colonization. تنوّعت الأساليب الاستعمارية الغربية على مستوى الاستراتيجيات والتقنيات والإيديولوجيا والرهانات. يمثل الاستعمار الداخلي/المحلي ركناً رئيساً وراسخاً من المؤسسة الاستعمارية، فهو مرحلة حاسمة قبل المرور إلى الاستعمار الخارجي. طوال القرن التاسع عشر، خلص السياسيون والمثقفون الأمريكيون والروس وغيرهم عادةً إلى أنّ التوسع القاري الأمريكي والروسي كان بمنزلة توطيد إقليمي أو توحيد أو نوع من القدر المحتوم. وشمل هذا التوسع أيضاً السكان الأصليين الذين امتلكوا، في نظر المستعمرين، معايير اجتماعية وثقافية واقتصادية وسياسية أدنى، فقد زُعم أنّهم (غير متحضّرين)، ويطالبون بأراضٍ أكثر ممّا يحتاجون إليه للبقاء على قيد الحياة.

بالإضافة إلى ذلك، نظرت كلّ من الولايات المتحدة وروسيا إلى نفسها ضمن تمثيلات وخطابات استثنائية، غالباً ما تمّ التعبير عنها بشكل مختلف عن التوسع والإمبريالية الأوروبية المصاحبة لها في الخارج. مع ذلك، كان الاستعمار الداخلي الأمريكي والروسي يعتمد على علاقات الهيمنة الاستعمارية بقدر اعتماد أيّ من التوغلات الخارجية الأوروبية. وقد رأى كلّ من

الأمريكيين والروس الاستعمار الداخلي عمليّة تختلف عن الإمبريالية والاستعمار الأوروبي في آسيا وأفريقيا، التي ادّعوا رفضها ولكنهم قاموا بموازاتها وتقليدها بشكل واضح.

ومن المثير للاهتمام أنّ الحكومة الأمريكية نادراً ما استخدمت مصطلح الاستعمار لوصف توسّعها أو سياساتها. في المناطق التي شهدت استعماراً داخلياً، استخدم المصطلح أحياناً لإجبار السكّان الأصليين على الانتقال إلى المحميّات، لكن الأمريكيين لم يطلقوا عليها أبداً اسم مستعمرات. على سبيل المثال، في عام ١٨٥٣، ناقشت مجلة «ذا فريند» (the Friend)، المفهوم، مشيرةً إلى أنّه «قد افترّح أن تكون سياسة جيدة استعمار هؤلاء الناس على طول الأراضي الخصبة التي تتخلّل تلك المناطق البريّة، ومنحهم أراضي يمتلكونها بشكلٍ فرديّ طالما كانوا مأهولين بها بالفعل. هذا الاقتراح جدير بالدراسة». وفي عام ١٨٦٥، كتب النقيب جيمس ل. فيسك James L. Fisk مفوض شؤون الهنود والحكومة الأمريكيّة على «استعمار جميع قبائل الهنود الذين يتجولون الآن في الأراضي الواقعة بين مينيسوتا وأيوا وجبال روكي». وادّعى أنّ «سياسة استعمارهم في محمية مشتركة ومحدودة ذات أبعادٍ وموارد كافيةٍ لمعيشتهم ستثبت... أنّها إغاثةٌ وفائدةٌ مباشرةٌ وفوريّةٌ لكلّ من الحكومة والهنود».

فرضت الولايات المتحدة وروسيا ثقافتيهما على الثقافات المحليّة للسكّان الأصليين، وأجبرتهم على التكيّف الاجتماعيّ والسياسيّ. استخدم المستعمرون المدارس والتعليم لتعليم الاندماج، أي السلوكيات الاجتماعيّة والثقافية التي عدّها الأمريكيون والروس ضروريّةً لأفراد المجتمع المستقرّين والمتحضّرين والمنتجين. كان التعليم أداةً لهدم الحواجز، إلى جانب العنف المعنويّ والماديّ، ووسيلةً لخلق تجانسٍ اجتماعيّ وثقافيّ وسياسيّ¹.

يمكن القول إذاً أنّ المشاريع الاستعماريّة تبدأ من الداخل في اتّجاه الخارج، وهنا تساءلت إيليز هويليري Elise Huillery عن التكلفة الاقتصاديّة للاستعمار الفرنسي لأفريقيا. فهل كان مكلفاً جداً؟ وهل أسهم دافع الضرائب الفرنسيّون في تنمية المستعمرات؟ واستنتجت الباحثة أنّ استعمار غرب أفريقيا الفرنسيّة لم يستحوذ إلّا على ٠,٢٩٪ فقط من النفقات الفرنسيّة السنويّة، بما في ذلك ٠,٢٤٪ للجيش والإدارة المركزيّة، و٠,٠٥٪ لتنمية غرب أفريقيا الفرنسيّة. أما بالنسبة لسكّان غرب أفريقيا، فكان إسهام دافعي الضرائب الفرنسيين شبه معدومة: إذ لم تُسهم فرنسا الأم

1. Steven Sabol, «The Touch of Civilization»: Comparing American and Russian Internal Colonization, University Press of Colorado, p.171-204.

إلا بنحو ٢٪ من إيرادات غرب أفريقيا الفرنسية. في الواقع، شكّل الاستعمار عبئاً كبيراً على دافعي الضرائب الأفارقة؛ نظراً لأنّ رواتب موظفي الخدمة المدنية الفرنسيين استوعبت نسبةً غير متناسبة من النفقات المحليّة؛ ولهذا نستنتج هنا أنّ المؤسّسة الاستعماريّة هي مشروعٌ اقتصاديٌّ بامتياز، ومثلما تبين لنا في النقطة السابقة، فالمشاريع الاقتصاديّة تبدأ من الدّاخل المحلي وتوجّه نحو الاستثمار الخارجي عبر عدّة أساليب ومنها الاستعمار^١؛ ولهذا بدأت الإمبراطوريّات الاستعماريّة الأوروبيّة بسباق استكشاف بين أقوى القوى البحريّة آنذاك، البرتغال وإسبانيا، خلال القرن الخامس عشر. وكان الدافع الأولي وراء هذه الإمبراطوريّات البحريّة المتفرّقة، وتلك التي تلتها، هو التجارة، مدفوعةً بالأفكار الجديدة والرأسماليّة التي نشأت من عصر النهضة الأوروبيّة. كما عُقدت اتفاقيّات لتقسيم العالم بينهما في أعوام ١٤٧٩ و ١٤٩٣ و ١٤٩٤.

ونشأت الإمبرياليّة الأوروبيّة من التنافس بين المسيحيّين الأوروبيّين والمسلمين العثمانيّين. وعلى مدى خمسة قرون تقريباً، استخدمت القوى الاستعماريّة الأوروبيّة، ولا سيّما البرتغال وهولندا وفرنسا وإنجلترا وبلجيكا وألمانيا وإيطاليا وإسبانيا، استراتيجيات وتكتيكات مختلفة في مناطق كثيرة من العالم ومنها أفريقيا لتحقيق الربح من خلال استغلال البشر، والاستكشاف، والتبشير، والاستعمار، والتجارة، والسطو، والسرقة. وشملت عمليّات استغلال بعض الأفارقة، والسيطرة على التجارة، وتدمير الثقافات والأديان الأفريقيّة، وفرض المسيحيّة، وإضعاف القيادات والسيادات الأفريقيّة عبر إنشاء حكومات استعماريّة، والاستيلاء على الأراضي والموارد الاقتصاديّة الأخرى، وتحويل الأفارقة إلى عمالة قسريّة، واستخدام الحرب الأهليّة والإرهاب^٢.

يتبين لنا أنّ فهم الأهداف الحقيقيّة للفعل الاستعماريّ وخاصّة كونه مؤسّسةً ربحيّةً بامتياز يسمح لنا بفهم الاستعمار وخاصّة مرحلة ما بعد الاستعمار بوصفها مشروع هيمنة غير مباشرة، وأكثر تأثيراً. ففي أعقاب ما بعد الحداثة، يعكس ما بعد الاستعمار الحداثة من منظور جديد، هو المنظور الثقافيّ. يفسّر ما بعد الاستعمار الاستعمار الكامن في الحداثة، ويفكّك الاستشراق والهيمنة الثقافيّة، ويحول تصوّر الغربيّ للحداثة إلى بحث في العلاقة العالميّة بين الشرق والغرب.

1. Elise Huillery, "The Black Man's Burden: The Cost of Colonization of French West Africa", The Journal of Economic History Vol. 74, No. 1, pp. 1-38.

2. Tatah Mentan, Africa in the Colonial Ages of Empire: Slavery, Capitalism, Racism, Colonialism, Decolonization, Independence as Recolonization, Langaa RPCIG, p.2-32, p.443-495.

يطرح ما بعد الاستعمار مجالاً نظرياً جديداً، ألا وهو العلاقة الاستعمارية بين الشرق والغرب في سياق التحديث. يعبر هذا التفسير عن نزعة قوية لمناهضة مركزية الغرب، ويتشارك بعض الأفكار مع الماركسية^١. وهنا تبرز أهمية المؤسسات العلمية والنخبة والتدريس والجامعات، وهذا ما برز مثلاً عبر التحديات بتدريس الإبادة الجماعية المرتكبة في الولايات المتحدة وكندا ضد الشعوب الأصلية، وذلك من خلال مناهج متنوعة ومنطق الاستعمار الاستيطاني نفسه. فموقع الأساتذة والطلاب المستوطنين يجعل هذا الموضوع يتناقض تناقضاً حاداً مع حالات الإبادة الجماعية الأخرى التي تُدرس عادةً، والتي تُعتبر «بعيدة» جغرافياً ونفسياً، وغالباً زمنياً. ينطوي تدريس الإبادة الجماعية للشعوب الأصلية في أمريكا الشمالية على تجربة شاقّة تتمثل في تثقيف الطلاب حول الإبادة المتعمدة لمجتمعات السكان الأصليين على أرض يطالب بها السكان الأصليون والدول والمجتمعات الاستيطانية. وواجهت هذه الجهود تحديات إضافية من قبل باحثين ونشطاء يرفضون دراسة الإبادة الجماعية للشعوب الأصلية في كلا البلدين، بوصفها ثقافة جامعية (مستنيرة) تهدف إلى تقويض القيم والحضارة الغربية.

يمكن تسهيل دمج الإبادات الجماعية للسكان الأصليين في دورات دراسات الإبادة الجماعية من خلال توضيح موقعنا كمدرسين مستوطنين، وتجنّب الاستيلاء الثقافي، وجعل الطلاب الأصليين يشعرون بأنهم يجب أن يربحوا ضمائرنا، والاختيار الدقيق للحالات، والتعاون المحترم مع شيوخ السكان الأصليين المحليين وحاملي المعرفة المبني على تنمية حساسية للعلاقات المجتمعية^٢.

يتبين لنا استناداً لماركس وخاصة لميشال فوكو أنّ الاستعمار هو قوة ومعرفة في الآن ذاته حيث تتحوّل هذه الثنائية إلى سلطة. فقد راهن الاستعمار على نقل المعرفة بين الإمبراطوريات خاصة بين أواخر تسعينيات القرن التاسع عشر وفترة ما بين الحربين العالميتين. ووظّف في ذلك المؤسسات العالمية بأنواعها (جامعات، مراكز بحث، جمعيات جغرافية، دور اللجان الحكومية الدولية ووسائل الإعلام و مترجمي «الخبرة العملية» الاستعمارية). كما أسهمت التقارير والصور

1. Geng Yang, Qixue Zhang and Qi Wang, "The Essence, Characteristics and Limitation of Post-Colonialism: From Karl Marx's Point of View", *Frontiers of Philosophy in China* Vol. 1, No. 2, pp. 279-294.

2. Maureen S. Hiebert, "University Teaching of Indigenous Genocides in North America", *Genocide Studies International* Vol. 16, No. 1, Special Issue on The Future of Genocide Education (Spring 2022), pp. 18-27.

والكتب والمقالات والمعارض والمنظمات المهنية والأكاديميون في تشكيل الخطابات الإدارية والقانونية والاقتصادية والبيئية والطبية والعسكرية والتكنولوجية حول الإمبراطورية الاستعمارية. كما تغلغلت أيديولوجية النزعة القومية الاستثنائية متشابكة مع سيرورة لابتكار صور نمطية ووصوم اجتماعية تحقيرية^١.

لم يكن الاستعمار فعلاً سياسياً فقط، بل كان رهاناً اجتماعياً أيضاً مثل علاقة تاريخ النوع الاجتماعي وحركة إصلاح الاستعمار الأفريقي خلال فترة ما قبل الحرب الأهلية. فقد كانت أفعال وخطابات كل من المستعمرين البيض الشماليين الذين دعموا جمعية الاستعمار الأمريكية (وجمعياتها التابعة)، والسود الأحرار الشماليين الذين عارضوا الاستعمار أو اقترحوا خططاً منافسة للهجرة السوداء والقومية السوداء، كانت خطاباتهم مليئة بالتصنيفات والشيطنة والوصوم؛ فقد اتخذت حركة إصلاح الاستعمار منذ بدايتها، طابعاً ذكورياً، مُشكّلة حركة إصلاحية طغت فيها السياسة العامة على الإقناع الأخلاقي، ومتبينة خطاباً متحيزاً جنسياً يَصوّر الاستعمار كمغامرة ذكورية، مع استحضار صور جنسية مُفرطة لأفريقيا ومستعمراتها. طوّر «السود الأحرار الشماليون» تصوراتهم المنافسة للرجولة والأنوثة ضمن انتقاداتهم لمخططات الاستعمار الأبيض، وضمن خططهم الخاصة بالهجرة والاستقلال الوطني خارج حدود الولايات المتحدة. وطبيعي هنا أن يكون الاستعمار متحيزاً جنسياً خلال تاريخ حركة إلغاء العبودية في فترة ما قبل الحرب الأهلية^٢.

والأهم هنا أنّ منهجية ما بعد استعمارية تُشكك في عالمية مفهوم النوع الاجتماعي. فبينما لا تُشكك في أن النظام الرأسمالي الحديث/الاستعماري للنوع الاجتماعي هو تنظيم قمعي ومتغير ومنهجي للسلطة، فإنّها تُجادل بأنّه ليس عالمياً؛ أي إنه ليس كلّ الشعوب تُنظّم علاقاتها من منظور النوع الاجتماعي وعلى أساسه. وهذه المعطيات رسّخت لدى الشعوب المُستعمرة التي تعيش في ظلّ الاختلاف الاستعماري توتراً دائماً حتّى بعد الاستقلال. إنّ رؤية الاختلاف الاستعماري تعني رؤية الاستعمارية/الحداثة كمكان يسكنه المُستعمرون، وكحالة قمعية يُشئون من خلالها معاني لا يتم استيعابها^٣.

1. Frank Schumacher, "Embedded Empire", Journal of Modern European History Vol. 14, No. 2, The Imperial Cloud, pp. 202-224.

2. Bruce Dorsey, "A Gendered History of African Colonization in the Antebellum United States", Journal of Social History Vol. 34, No. 1, pp. 77-103.

3. María Lugones, "Gender and Universality in Colonial Methodology", Critical Philosophy

استفاد الاستعمار من المستعمرات اقتصادياً وحضارياً وتقنياً وعلمياً. خلال ثلاثينيات القرن العشرين، وبينما كان مسؤولون فتيون من مختلف الأراضي في أفريقيا الإمبراطورية البريطانية يجوبون الولايات المتحدة لدراسة جهود الحفاظ على التربة الفيدرالية في أعقاب كارثة العواصف الترابية، قاموا بتسجيل ملاحظات دقيقة حول البرامج المطبقة على سكان أمريكا الأصليين في جنوب غرب البلاد، وتشاوروا مع زملائهم في مكتب شؤون الهنود الأمريكيين. تجاوزت هذه الملاحظات والتشاورات، التي لم يسبق استكشافها، المسائل الفنية البحتة، إذ أصبحت فرصاً مهمة لكل من المسؤولين البريطانيين ومسؤولي مكتب شؤون الهنود الأمريكيين للتأمل بشكل مقارن في الاستعمار الاستيطاني الأمريكي المستمر، والأوضاع الاستعمارية في شرق وجنوب أفريقيا، وبرامج الدول الموازية لـ (تنمية السكان الأصليين). تمكّن إذا الفاعلون خلال الحقبة الاستعمارية من توظيف الحوارات العابرة للاستعمار للتعبير عن مصالحهم الخاصة والترويج لنهجهم المفضل في إدارة الشعوب المستعمرة ومناطقها الطبيعية^١.

أنتج الاستعمار تراتبيات قاسية وصارمة في المستعمرات ساعدته على فرض هيمنته مع هوسه بفرض أنماط معرفته وحكمه ومنها فرضه بالقوة لمؤسسة الدولة القومية، وبرز ذلك مثلاً خلال الثورات القبليّة والفلاحية المسلّحة في الهند خلال الحقبة الاستعمارية وما بعدها. برز خلال هذه المدة فكرتان مترابطتان حول استمرارية العنف من الحقبة الاستعمارية إلى ما بعدها: (١) خلق نظام الدولة القومية - في سعيه لفرض السيطرة والنفوذ - تسلسلاً هرمياً للمواطنة يمارس قمعاً عدائياً ضدّ الفئات المهمّشة؛ ممّا يؤديّ إلى اندلاع الثورات المسلّحة والعنف السياسي. (٢) إنّ ردّ فعل الدولة في مرحلة ما بعد الاستعمار على هذه الثورات المسلّحة للفئات المهمّشة - التي تحدّى سيادتها واحتكارها للعنف يتّسم بالعنف والقمع على حدّ سواء. والأهمّ من ذلك، أنّ ردّ فعل الدولة يُبرر بالخطابات والمبررات الاستعمارية نفسها التي تُطبع العنف المعرفي والماديّ ضدّ العالم الثالث^٢.

of Race Vol. 8, No. 1-2, pp. 25-47.

1. JACOB TROPP, "U.S. Indian Affairs, British Imperial Africa, and Transcolonial Dialogues over Conservation and "Native Development" in the 1930s", Journal of World History Vol. 33, No. 3 (SEPTEMBER 2022), pp. 459-489.

2. Swati Parashar, "Colonial legacies, armed revolts and state violence", Third World Quarterly Vol. 40, No. 2, SPECIAL ISSUE: Empire to Globalisation: Violence and the Making of the Third World, pp. 337-354.

برز هذا كما أشرنا في الهند وظهرت نتائجه أيضاً في المشرق العربي وأمريكا اللاتينية القارة الأفريقية.

تطوّر التعامل المنهجيّ مع الاستعمار ونُظر له من زوايا متعدّدة ومنها الأدبي، حيث نجد من يدعو إلى نوع من الاستعمار على الممارسات الأدبية والنصوص وحتى طريقة الكتابة وأساليب التفكير والإبداع. أصبحت الأعمال الأدبية مواقع لتفسيرات استعماريّة للثقافة والتاريخ والنصوص الأصليّة. على سبيل المثال، تُصوّر قصيدة ألفونسو دي إرسيلّا Alfonso de Ercilla الملحمية «لا أراوكانا» La Araucana، التي نُشرت في إسبانيا في النصف الأخير من القرن السادس عشر، مكائد الصراع بين الإسبان وهنود المابوتشي. تتبع الملحمة تقليد قصص الفروسيّة التي تُصوّر المابوتشي Mapuche، ولا سيّما زعمائهم ومحاربيهم، بصورة متعاطفة في صراع على هامش المستعمرة في جنوب تشيلي^١. بالمقابل، استفادت المستعمرات نسبياً من الاستعمار سواء أعلى مستوى البنية التحتيّة (جسور، طرقات، سكك حديدية...) أم على مستوى البنية العلميّة (مدارس، جامعات...)، أم على مستوى البنية الاجتماعية (مقاومة الأوبئة، انتشار التعليم، البيروقراطية...)؛ ولهذا ترسّخت لدى المستعمرات مفاهيم مهمّة مثل الدولة القوميّة أو العقلنة الإداريّة أو العلاقات الدوليّة والقانون الدوليّ إلخ^٢. وقد أكّدت أعمال أخرى هذا الأمر.

فطالما استخدم الروائيون وغيرهم من المنتجين الثقافيين القارة الأفريقيّة كخلفيّة لبناء حكايات خياليّة. فمن السير جون ماندفيل John Mandeville إلى جوزيف كونراد Joseph Conrad ملئت المساحات الفارغة في أفريقيا على الخريطة بمخلوقات مرعبة تُغذيّ الخيال الغربيّ. ونتيجة لذلك، كان لهذا التهميش المستمرّ لما يُسمّى بـ(القارة المظلمة) أثرٌ سلبيّ على الدول الأفريقيّة ومواطنيها، كما يتّضح جليّاً في وصف الرئيس الأمريكيّ دونالد ترامب Donald Trump الشهير للقارة بأكملها بأنّها مجموعة من «الدول القذرة» (shithole countries). وقد استمرّ هذا التوجّه في الثقافة الشعبيّة وبرز هذا الأمر في الخيال التأمليّ للروائيّة والفنّانة البريطانيّة بي. كاتلينغ B. Catling. تُعد رواية (ذا فور The Vorrh) التي نُشرت عام ٢٠١٥، الأولى من ثلاث روايات تدور أحداثها في أفريقيا موازية، وتحديدًا في مستعمرة ألمانيّة سابقة تضمّ بقايا من جنّة عدن. تحدّث العمل عن الغابة

1. Andrew R. Reynolds, "Introduction: Colonization, Modernity, and the Editorialization of the Americas", Textual Cultures, Vol. 13, No. 2, pp. 1-9.

2. Sociology and Empire: The Imperial Entanglements of a Discipline, EDITED BY GEORGE STEINMETZ, Duke University Press, p.489-498.

الساحرة المعروفة باسم فور وعاصمة المستعمرة (الخيالية)، إيسنوالد. تم ربط هياكل التكرار في تمثيل أفريقيا الخيالية بالرموز الجيوسياسية الغربية ذات النزعة الإمبريالية، وصولاً إلى الجغرافيا الطبيعية والبشرية الفعلية التي تشكل ثاني أكبر قارات العالم وأكثرها اكتظاظاً بالسكان^١.

وُظفت أساليب كثيرة لإنتاج المشروع الاستعماري ومنها استغلال علم الخرائط Cartography. أظهر مثلاً تحليل رحلة السير همفري جيلبرت Sir Humphrey Gilbert الاستكشافية إلى أمريكا الشمالية عام ١٥٨٣ - والتي كانت أول محاولة لإنجلترا للاستعمار خارج بريطانيا - أن رواد التوسع الأوائل في البلاد أدركوا أهمية الخرائط في دعم الاستعمار. استعان جيلبرت بالعديد من المتخصصين، بمن فيهم جون دي John Dee وريتشارد هاكلوت Richard Hakluyt، الذين بذلوا وقتاً وجهداً كبيرين في البحث عن الخرائط ووضع خططاً لمسح المستعمرة. يوضح فحص دقيق لخرائط جيلبرت البحرية والبرية كيف استخدمها حلفاؤه للترويج للرحلة، وتوجيهها إلى أمريكا الشمالية، وفرض سيطرتهم على المنطقة. غالباً ما صُوّر الباحثون المستعمرون الإنجليز في أوائل العصر الحديث على أنهم لم يُبدوا اهتماماً كبيراً بالمواد الخرائطية، لكن جيلبرت وأنصاره أثبتوا أن الخرائط أدت عدداً من الوظائف الحيوية في إعداد وتنفيذ رحلة استعمارية^٢.

اعتمد الاستعمار على أسلوب آخر مهم حيث لا يكتفي المستعمرون بالاحتلال بل مارس التهجير القسري العنيف سواء للتخلص من المعارضة أو لتفريغ الأراضي وتحويلها إلى المستعمرين، وفي حالات أخرى لإثبات نظرية شعب بلا أرض، أي شرعية الاستعمار. وهذا ما حدث مثلاً في استعمار أمريكا الشمالية وتهجير الهنود وهم السكان الأصليون. بل مارس الأمريكيون فيما بعد أسلوب التهجير المضاعف حيث أبعدها (السود) وهم العبيد السابقون وأعادوا توطينهم في أفريقيا والكاريببي وأمريكا اللاتينية^٣. كما أنتجت المشاريع الاستعمارية أساليب أخرى كثيرة وصل بعضها إلى حد ابتلاع المجتمعات المحلية ونفي كلمة استعمار من الأساس وهذا ما عبّر عنه بمصطلح (الاستيعاب). فقد سيطر مثلاً اليابانيون على شبه الجزيرة الكورية، معربين عن ثقتهم

1. Robert A. Saunders, "Reimagining the colonial wilderness", Cultural Geographies Vol. 26, No. 2, pp. 177-194.

2. Nate Probasco, "Cartography as a Tool of Colonization: Sir Humphrey Gilbert's 1583 Voyage to North America", Renaissance Quarterly Vol. 67, No. 2, pp. 425-472.

3. Paul Frymer, Building an American Empire: The Era of Territorial and Political Expansion, Princeton University Press, 2017, p.220-262.

بأن سياسة الاستيعاب التي اتبعوها ستزيل مع مرور الوقت الفوارق بين المُستعمر والمُستعمر. وتوقعوا أن اليابانيين والكوريين سيتحدون يوماً ما في كيان واحد. وأصبح كوريون، مثل رئيس الدفاع المدني تشو بيونغسانغ Cho Pyongsang، الذي عرض ابنه على الجيش الياباني، والكاتب هيون يونغسوب Hyon Yongsop، الذي رسم مساراً واضحاً لكيفية نيل الكوريين قبول اليابانيين، حيث يُعرفون أنفسهم الآن بأنهم يابانيون مُندمجون بدلاً من كونهم رعايا كوريين. وتشير قصصهم إلى أن سياسة الاستيعاب اليابانية حققت نجاحاً خلال فترة الحكم الاستعماري الياباني في كوريا^١.

مثل التعليم وسيلة استعمارية راسخة ورهائناً في الآن ذاته. فقد بينت الدراسات أثر النخب المتعلّمة قبل الاستعمار والاستعمار على التحديث. وبرز ذلك جلياً في أماكن مختلفة من العالم ومنها الاستعمار الياباني لكوريا بدايةً من سنة ١٩١٠. تأثر نظام الامتحانات المدنية والتقاليد الأكاديمية، إلى جانب توفير المدارس العامة في ظلّ الحكم الاستعماري الياباني، على مستويات الإلمام بالقراءة والكتابة في المستعمرة. ونتج عن ذلك انتشار الإلمام باللغة الكورية خلال الفترة الاستعمارية المبكرة وارتباط ذلك ارتباطاً وثيقاً بالوجود التاريخي لخريجي الامتحانات المدنية. وقد شهدت المناطق التي كان فيها وجود أكبر للنخب المتعلّمة لاحقاً أعداداً أكبر من المعلمين الكوريين، بالإضافة إلى إنشاء المزيد من المدارس الخاصة كبديل للمدارس العامة الاستعمارية^٢. إذاً يمكن أن يتحوّل التعليم إلى أداة لتفكيك الاستعمار ونقضه.

نتجت عن المشاريع الاستعمارية مؤسسات أخرى موازية، ومنها المتحف الذي كان يغيص بآثار المستعمرات وابداعاتها. نلاحظ وجود مجالين مترابطين وُجدت فيهما القطع الأثرية الاستعمارية في أوائل العصر الحديث: العالم الاستعماري، الذي يربطه تداول هائل للقطع الأثرية (السلع، والمنتجات الفاخرة، والمقتنيات، وعينات التاريخ الطبيعي). وغرفة الفنون (أو المتحف/المعرض/قاعة العرض)، وهي مساحة عرض خاصة بأوروبا في أوائل العصر الحديث، حيث عُرضت العديد من هذه القطع؛ ولهذا نستنتج أن الاستعمار هو لحظة قاسية وبغيضة، ولكنها مؤسسة سعت إلى شرعنة وجودها عبر الجمال وحماية الموروث الإنساني^٣. كما أصبح الميتروبول فضاءً ومكاناً

1. MARK E. CAPRIO, Japanese Assimilation Policies in Colonial Korea, 1910-1945, University of Washington Press, p.198-212.

2. JI YEON HONG and CHRISTOPHER PAIK, "Colonization and education: exploring the legacy of local elites in Korea", The Economic History Review Vol. 71, No. 3, pp. 938-964.

3. Mårten Snickare, Colonial Objects in Early Modern Sweden and Beyond: From the

حيوياً لتجميع الحيوانات الغربية من كل أنحاء العالم/المستعمرات. فقد تعرّفت أوروبا عن قرب على حيوانات آسيا وإفريقيا وأمريكا وأستراليا^١. وقد استفادت المجتمعات الغربية من هذه الغرائبية الحيوانية سواء من خلال سعة الخيال والاطّلاع أو التجارب العلمية، أو تنمية الثروة الحيوانية والطبيعية، أو ترسيخ أهمية مجتمع الفرجة كركيزة أساسية للمجتمع الاستهلاكي.

نلاحظ إذاً قدرة الاستعمار على التأثير في الخصائص البيئية للمجتمعات المستعمرة ومجتمعاته هو ذاته. وهذه ممارسة ضاربة في القدم ففي كثير من الحالات، أدّى الاستيطان البشري إلى تغييرات جذرية في النظم البيئية بريّة كانت أم بحرية. توفّر السجلات البيئية القديمة، قبل وبعد الاستيطان البشري، رؤى ثابتة حول النظم البيئية الأصلية وتقيماً للتأثير البشري اللاحق. وأثبت ذلك عبر تحليل حبوب اللقاح ومقارنة تأثير استيطان جزر الأزور (المحيط الأطلسي) في القرن الخامس عشر بتأثير الاضطرابات الطبيعية مثل الانفجارات البركانية والتغيرات المناخية. جمع تأريخ سجلات الرواسب من ثلاثة مواقع جبلية في جزر الأزور (في جزيرتي بيكو وفلوريس) إشعاعياً، ثم تحليلها باستخدام علم حبوب اللقاح. وصنّفت أنواع حبوب اللقاح إلى محلية ومستوطنة ودخيلة بناءً على مقارنتها بقوائم النباتات. وتم تقسيم البيانات إحصائياً إلى مناطق، وتحديد الاتجاهات الزمنية باستخدام تحليل التوافق المعدّل. النتائج: أدّى استيطان البشر لجزر الأزور إلى تغييرات نباتية سريعة وواسعة النطاق ومستمرة على نطاق غير مسبوق خلال الـ ٢٧٠٠ سنة الماضية، ويمكن رصدها من خلال تراجع الأشجار السائدة، وانتشار الأعشاب والأنواع المقاومة للحريق، وإدخال نباتات دخيلة، ودلائل على الرعي والحراثة، وتغيرات في التربة وتوافر الرطوبة.

خلال المدّة نفسها، يبدو أنّ الانفجارات البركانية كان لها تأثيرات أكثر محلية على الغطاء النباتي، استمرت من ٥٠٠ إلى ١٠٠٠ عام، وأسهمت في ازدهار الأنواع المستوطنة. ويبدو أنّ تأثير التغيرات المناخية في أواخر العصر الهولوسيني على نباتات المرتفعات في جزر الأزور كان طفيفاً. تشير البيانات البيئية القديمة إلى انقراض نوعين نباتيين على الأقل في جزيرة بيكو بعد استيطان البشر، وأن بعض النباتات التي تُعدّ دخيلة كانت على الأرجح جزءاً من النباتات الأصلية للجزر. والاستنتاج الأساس هو أنّه كان للاستيطان البشري تأثير أكبر على الغطاء النباتي البكر مقارنةً بالتغيرات المناخية والنشاط البركاني خلال الألفيات الأخيرة. ويشير التشابه بين التغيرات

Kunstkamer to the Current Museum Crisis, Amsterdam University Press, 2022, p.13-22.

1. COREY LEE WRENN, Animals in Irish Society: Interspecies Oppression and Vegan Liberation in Britain's First Colony, State University of New York Press, p.1-18.

التي طرأت بعد الاستيطان في جزر الأزور وغيرها من الجزر المحيطية إلى نمطٍ ونطاقٍ متسقين لتأثير الإنسان في الحقبة التاريخية على النظم البيئية البكر^١.

استفزز الاستعمار المجتمعات المحلية وخاصة معرفياً ممّا أسهم في إنتاج معرفة أصيلة كمحاولة لردّ الفعل، ويمكن للبرازيل أن تقدّم لنا نموذجاً تفسيريّاً مهماً. برز فنّ كتابة المقالات في البرازيل خلال العقود الأولى من القرن العشرين، وذلك بتحديد المواضيع والقضايا الرئيسة التي بُني حولها أفقٌ فكريٌّ سوسيولوجيٌّ أصيلٌ. فقد كانت قضايا الاستعمار والعبودية والملكية الريفية واسعة النطاق هي الأساس التي بُني عليها المنهج السوسيولوجي في البرازيل، من خلال تحديد مجموعة مشتركة من المفاهيم والفئات والأساليب. ويبرز ذلك جليّاً من خلال: (أ) المكانة التحليلية لفنّ كتابة المقالات في الفكر الاجتماعيّ البرازيليّ؛ (ب) تحليل المقترحات النظرية والنتائج التفسيرية التي حقّقها ثلاثة من أبرز مؤلّفي تلك المرحلة، وهم: جيلبرتو فرايري (Gilberto Freyre) (١٩٠٠-١٩٨٧)، وسيرجيو بواركي دي هولاندا (Sergio Buarque de Holanda) (١٩٠٢-١٩٨٢)، وكايو برادو جونيور (Caio Prado Júnior) (١٩٠٧-١٩٩٠). علاوةً على ذلك، تخلّل الهاجس الاستعماريّ البُعد التاريخي لأفكارهم^٢.

مؤسّسة الاستعمار عبر منصّة Cairn

اشتمل موقع Cairn على ٢٥٧٨٦ عملاً يحيل مباشرةً إلى كلمة استعمار Colonisation. احتوت إذاً المنصّة الفرنسيّة على مقالات عديدة ومهمّة عن الاستعمار؛ ممّا يساعدنا على مقارنة هذه المؤسّسة مقارنةً أكثر علميّةً وصرامةً وتنسيباً. وتفيدنا هذه المنصّة العلميّة، إلى جانب اطلاعنا على الإنتاج باللغة الفرنسيّة عن الاستعمار، في حيازة زوايا نظرٍ واكتساب مقارباتٍ تأويليةٍ مهمّة، ووضع الاستعمار في سياقاتٍ مختلفة.

تنقسم الحقب الاستعماريّة إلى حقتين أساسيتين، حيث يشير مصطلح (الاستعمار الأول) إلى

1. Simon E. Connor, Jacqueline F.N. van Leeuwen, Tammy M. Rittenour, Willem O. van der Knaap, Brigitta Ammann, Svante Björck and José María Fernández-Palacios, "The ecological impact of oceanic island colonization — a palaeoecological perspective from the Azores", Journal of Biogeography Vol. 39, No. 6, pp. 1007-1023.

2. Mariana Miggiolaro Chaguri, "Essayism and Sociology in Brazil", The American Sociologist Vol. 51, No. 3, Social Essayism and Sociology in Brazil, pp. 306-317.

الحركة الاستعمارية التي امتدت من القرن السادس عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر، وبلغت ذروتها باستقلال أراضي أمريكا الشمالية (الولايات المتحدة)، وأمريكا اللاتينية (إسبانيا والبرتغال). وقد أتاحت هذه الحقبة الأولى للمملكة المتحدة استعادة شبه القارة الهندية وكندا من فرنسا المهزومة عام ١٧٦٣. ورغم أن إرث النظام القديم لكندا كان ضئيلاً نسبياً من حيث المساحة، فإنه كان أساسياً في بناء وجود ما وراء البحار استمر حتى يومنا هذا تقريباً (جزر الهند الغربية الفرنسية، جزيرة ريونيون). والأهم من ذلك، أنه يُثير اليوم نقاشات حادة حول الممارسات التي استمرت خلال هذه الإمبراطورية الأولى، مع تصدر الرق وتجارة الرقيق المشهد: ما يُثير، كما يُقال، (واجب التذكر)، الأمر الذي يُشعل جدلاً واسعاً.

في نهاية المطاف، حتى قبل تداعيات الحرب الجزائرية، يمكن القول إن هذا الإرث يُمثل جوهر النقاشات المدنية، وهو ما يُتيح صلةً وثيقةً بين الماضي والحاضر، بين التاريخ والحياة المدنية. لسوء حظ فرنسا، أسفرت هزيمتها أمام بريطانيا العظمى عام ١٧٦٣، في نهاية حرب السنوات السبع، عن فقدانها أراضيها في الهند وكندا. كما أدت الحروب الثورية والناپليونية إلى مزيد من تآكل نفوذ فرنسا البحري؛ فقد سقطت موريشيوس تحت السيطرة البريطانية؛ بل احتلت مارتينيك (١٧٩٤-١٨٠٢)، وسان بيير وميكلون (١٧٩٣-١٨١٥) لمدة من الزمن، وكذلك غويانا الفرنسية من قبل البرتغاليين (١٨٠٩-١٨١٦).

أما الحقبة الثانية فهي فترة التمدد الاستعماريّ الشامل بداية من ١٨٣٠ (الاستعمار الفرنسي للجزائر) وخاصة خلال النصف الثاني من هذا القرن (تونس، المغرب، مصر...)، ومثلت هذه الفترة التمدد الأطول والأشمل للاستعمار الأوروبيّ عالمياً وشكّل بنسبة كبيرة واقع المجتمعات الأفريقية والآسيوية اليوم^١. إذاً لا يمكن لنا منهجياً الحديث عن حقبة استعمارية واحدة، بل حقب كثيرة (الروماني، اليوناني...)، ولكنه استعمار الحقبة الحديثة (الأوربي) هو الأعنف والأصلب والأكثر تأثيراً اليوم.

كان اتصال المجتمعات الأفريقية والآسيوية وأمريكا اللاتينية القديمة بالأوروبيين قاتلاً بالنسبة لها، حتى وإن كانت هيمنة هؤلاء قصيرة الأمد؛ ففي معظم الحالات، لم تكن لديهم نية لمهاجمة التراث التقليدي - باستثناء الممارسات التي عدوها غير مقبولة: التضحية البشرية، وأكل لحوم

1. Hubert Bonin, « Les héritages de la première colonisation (du début du xix^e siècle au xx^e siècle) », in: Hubert Bonin, L'empire colonial français : de l'histoire aux héritages, Armand Colin, p.38-50.

البشر، واختبارات المحنة -، إلا إنهم، لكونهم أكثر تقدماً من الناحيتين التقنية والاقتصادية، كانوا يعتقدون أنه لا توجد سوى حضارة واحدة: حضارتهم، وأن احتياجاتهم هي الاحتياجات المشروعة الوحيدة.

في تلك الحقبة، التي تُسمى الحديثة، كانت الدول الأوروبية تشعر باحتياجات متعددة: ضرورة توفير مساحة حيوية لفائض سكاني، ورغبة في استهلاك سلع غريبة، ولا سيما التوابل، وواجب إرضاء روح المغامرة، والقيام بمهمة حضارية أو دينية، وغزو الأسواق التجارية، أو اتباع سياسة تهدف إلى اكتساب الهيبة. تظهر هذه الدوافع المتنوعة أحياناً مختلطة، وأحياناً يكون أحدها هو السائد بشكل واضح. في منطقة الساحل، ينقسم الإسلام إلى طوائف تتنازع في كثير من الأحيان، وليس فقط في الأمور اللاهوتية. وقد اتجه إلى الانتشار خلال الفترة الاستعمارية، إذ طالما حلمت فرنسا بإبرام اتفاق معه؛ لأن الدين الإسلامي، بقواعده الأخلاقية وطاعته للسلطة، بدا لها أقرب إلى العقلانية الغربية من تلك البؤر المتعددة للحماس الوثني، التي تناسب تماماً مع حياة الفلاحين السود.

في نهاية القرن التاسع عشر، كانت فترة من التنافس الشديد بين المستعمرات، وكانت أيضاً لحظة من التنسيق والتعاون عبر الإمبراطوريات. إن التدويل، من خلال الخطابات والتطبيقات الاجتماعية، شكل استراتيجية لخدمة مروجي الاستعمار لفرضها على الفاعل الوطني و/أو على المشهد الأوروبي. يمكن أن يكون بمنزلة خدمة مساعدة لطموحات مجمل الدول الأوروبية المستعمرة، ومصدراً للشرعية وانعكاساً للحقوقيين الدوليين والخبراء المستعمرين الأحرار. إن تعدد المبادرات، وكثافة تداول الخبرات والممارسات والأشخاص في هذه السديم الاستعماري الأوروبي، وظواهر جميع العائدات تدعو التاريخ إلى التحرر من الصور النمطية المنتشرة. يمكن أن نموذج الاستعمار ضمن ظاهرة «عبر الحدود الوطنية»، ولكن اتخاذ القرار في البناء العابر للحدود الوطنية لـ «العلم الاستعماري» يكون في المتروبول¹.

خلال القرن نفسه، أي ١٩، غالباً ما أدت المنافسة الاستعمارية إلى توترات دبلوماسية، لكنها نادراً ما أسفرت عن صراعات. فغالباً ما كانت النزاعات الاستعمارية تُحل بالوسائل الدبلوماسية. وكانت التوترات بين القوى العظمى تنبع بطبيعة الحال من طموحات متنافسة. وهكذا، كانت تونس مصدر خلاف بين فرنسا وإيطاليا منذ استقرار الفرنسيين فيها، وحتى مطلع القرن العشرين.

1. Pierre Singaravélou, « Les stratégies d'internationalisation de la question coloniale et la construction transnationale d'une science de la colonisation à la fin du xixe siècle », Monde(s), /1 N° 1, p.135-157.

وعادت لتصبح كذلك عندما بدأ موسوليني، في أواخر الثلاثينيات، بالمطالبة بالأراضي الإيطالية التي كانت فرنسا تحتلها دون حق حسب تحليلاته. وكان الدوتشي يستند بنحو خاص إلى الضعف الديموغرافي الفرنسي، الذي جعل فرنسا عاجزة عن توطين مستعمراتها، في حين أن الحيوية الإيطالية كانت تجبر عدداً كبيراً من الإيطاليين على الهجرة. كما ظهرت توترات حول ترسيم حدود الممتلكات الاستعمارية.

كان هذا هو الحال بين الإمبراطورية الروسية وبريطانيا، مع الاستعمار الروسي في آسيا الوسطى. كانت بريطانيا تخشى أن يهدد الروس، باستخدام ممر خيبر، إمبراطورية الهند، «جوهرة التاج». وقد وفرت أفغانستان منطقة عازلة ملائمة، تحت وصاية بريطانية فضفاضة سعت، في مطلع القرن العشرين، إلى الاعتراف بحدودها الخارجية، دون أن تنجح أبداً في السيطرة عليها فعلياً. وبالمثل، كانت بلاد فارس، إيران الحالية، دولة عازلة، دائماً بين روسيا وبريطانيا العظمى، وسيام بين المستعمرة البريطانية والإمبراطورية الفرنسية. إذا لم تكن المشاريع الاستعمارية مجرد رحلة استكشافية أوروبية، بل كانت وجهاً أساسياً من أوجه التنافس الدولي، وسبباً رئيساً للحرب العالمية الأولى والثانية¹. ولهذا نستنتج أن المشروع الاستعماري خلال القرن ١٩ كان وسيلة للتهدة في أوروبا وتقنية لتصدير الأزمات الداخلية، ولكنه تحول خلال القرن ٢٠ إلى سبب أساس للتقابل والحرب.

منذ مطلع القرن التاسع عشر، انخرطت فرنسا في بناء ثاني أكبر إمبراطورية استعمارية في العالم، بعد إمبراطورية بريطانيا العظمى: إمبراطورية تتميز بخصائص فريدة، من حيث طول أمدها، إذ لا تزال قائمة حتى اليوم في الأقاليم والمقاطعات الخارجية، ومن حيث تنوع الأنظمة السياسية التي مكنتها من الاستمرار. وقد كان الاستعمار، بوصف عنصرًا مركزيًا في التاريخ المعاصر، له تأثير بالغ على فرنسا في الماضي، وما يزال يلعب دوراً أساسياً في حاضرها. وبالتالي، فإن فهم الإرث الاستعماري يعني محاولة إدراك الكيفية التي ما يزال بها هذا الإرث يؤثر بعمق في المجتمع الفرنسي، وكذلك على مجتمعات البلدان التي كانت مستعمرة في الماضي.

لطالما ظل الاستعمار جانباً مهماً في الكتابة التاريخية، غير أن تناوله أفضى إلى ظهور عدد من المؤلفات التي أثارت جدلاً واسعاً في كثير من الأحيان. لم تكن فرنسا الدولة الأوروبية الوحيدة التي امتلكت إمبراطورية استعمارية. فحتى في أوائل العصر الحديث، مهدت إسبانيا والبرتغال

1. Bernard Phan, Colonisation et décolonisation (XVIe-XXe siècle), Presses Universitaires de France, p.105-108.

الطريق لتقسيم العالم الذي رسّخته معاهدة تورديسيلاس في نهاية القرن الخامس عشر. إلا أنه ابتداءً من القرن السابع عشر، سيطرت فرنسا وبريطانيا العظمى، إلى جانب هولندا، على المشهد، لتصبحا الدولتين الاستعماريّتين الرئيسيتين في العالم المعاصر، وقد أسهم تنافسهما في هذا المجال جزئياً في تشكيل العلاقات الأوروبية والدولية. وفي هذا (السباق نحو الإمبراطوريات)، الذي يعكس أيضاً الاضطرابات الهائلة التي شهدتها المجتمعات الأوروبية في أواخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر: من نزوح ريفي، وتوسع حضري وتصنيعي متسارع، وثورات وصراعات طبقية، تميّزت فرنسا بخصائص فريدة. إلى جانب طول أمد تجربتها الاستعمارية تاريخياً - التي بدأت عام ١٥٣٤ في فرنسا الجديدة وتستمر حتى اليوم عبر مقاطعاتها وأقاليمها ومناطقها وجماعاتها ما وراء البحار فإن ما يثير الدهشة حقاً هو تنوع الأنظمة السياسية التي سمحت للهيمنة الاستعمارية بالاستمرار: فقد تعاقبت عليها أنظمة الحكم الملكي (من ١٨١٥ إلى ١٨٤٨)، والإمبراطوريات (من ١٨٠٤ إلى ١٨١٥، ثم من ١٨٥٢ إلى ١٨٧٠)، والجمهوريات (منذ ١٧٩٢) دون أن يواجه الوجود الاستعماري الفرنسي تحدياً حقيقياً، باستثناء مدّة وجيزة جداً من إنهاء الاستعمار (١٩٤٦-١٩٦٢). وبوصفها ثاني أكبر إمبراطورية استعمارية في العالم (بعد بريطانيا العظمى)، لا تزال آثار الدول الفرنسية الاستعمارية حاضرة في العصر الحديث، إذ تمتد الأراضي الفرنسية إلى نحو ١٢ مليون كيلومتر مربع، ويبلغ عدد سكانها قرابة ٦٨,٦٩٠,٠٠٠ نسمة، موزعين على أقاليم تقع في أربع قارات هي: أمريكا، وأفريقيا، وآسيا، وأوقيانوسيا.

شكلت فرنسا، في أوج قوتها منتصف ثلاثينيات القرن العشرين، ما كان يُعرف آنذاك بـ(فرنسا الكبرى). وقد كُتب ونُشر الكثير عن (فرنسا الكبرى) منذ استقلالها في ستينيات القرن العشرين، لا سيما في سياق علمي وسياسي وإعلامي شديد الجدلية. يمكن القول إن تاريخ الاستعمار أكثر تعقيداً وغموضاً بكثير من المعتقدات الشائعة عنه. إن استمرار هذه المعتقدات في مجالات متنوعة كالسياسة والدبلوماسية والإعلام والفنون والرياضة والإعلان والأزياء والتصميم الداخلي، يُظهر بوضوح — كما كتب المفكر المناهض للاستعمار فرانز فانون Frantz Fanon ببراءة في كتابه الرائد «معذبو الأرض» (١٩٦١) — أن تحرير الفضاءات المادية من الاستعمار لا يكفي لتحرير العقول^١.

لعب الاستعمار دوراً آخر مهماً ترك أثره إلى اليوم؛ إذ أسهم في تشكّل الحدود القومية وابتكرها

1. Christelle Teraud, Idées reçues sur la colonisation La France et le monde : XVIe-XXIe siècles, Le Cavalier Bleu, Paris, 2018, p.11-12, p.155-156.

أحياناً، خاصةً في مناطق قبلية أو ذات مرجعيات إثنية، وهذا ما أسهم في أزمات عديدة، ومنها الحروب الأهلية؛ ففي ظل المنافسة الدولية الشديدة التي سادت في ثمانينيات القرن التاسع عشر، شكّلت مسألة ترسيم الحدود الاستعمارية أحد الشواغل الرئيسة للقوى الأوروبية؛ فاجتمعت هذه القوى في مؤتمر برلين في عامي ١٨٨٤ و ١٨٨٥ لمناقشة المطالبات الإقليمية العديدة في غرب إفريقيا. ثم صاغ الأوروبيون، الذين لم يكونوا على دراية تامة بالواقع الجغرافي للأراضي المعنية، العديد من المعاهدات بعبارات عامة. كان الأوروبيون -من حيث المبدأ- ينوون رسم حدود تتوافق مع مجاري الأنهار واتجاه سلاسل الجبال. ومع ذلك، في غياب الأنهار والتضاريس، غالباً ما اضطر أعضاء لجان ترسيم الحدود إلى تحديد الحدود بناءً على خطوط الطول والعرض. وهكذا، فإن ٤٤٪ من الحدود الأفريقية تستند إلى خطوط الطول، و ٣٠٪ منها تعتمد على حسابات رياضية (أقواس ومنحنيات)، في حين أنّ الظروف الجغرافية لا تؤثر بشكل حاسم إلا على ربع الحدود. ومع ذلك، في معظم الأحيان، يتم تعديل هذه الحدود التعسفية من خلال مراعاة الحدود التي رسمها السكان الأصليون أو القوى الأخرى. مثلاً، بعد الحرب العالمية الأولى، تم تعديل الحدود بين ساحل الذهب وتوغو، التي حددها البريطانيون والألمان في الأصل، من قبل فرنسا^١.

الاستنتاج الأساس هنا أنّ الحدود فرضت فرضاً على مجتمعات محلية ذات خصوصيات إما عرقية، وإما لغوية، وإما دينية، وإما قبلية، وأنماط إنتاج مخصوصة. أيّ تمّ فرض نمط الدولة القومية ذات السيادة على مجتمعات لها نظمها السياسية الخاصة. وهذا ما أسهم في تأسيس أزمات غير قابلة للحل.

لم يكن الاستعمار مؤسسة ذات وجه واحد، بل كان ذا نسخ كثيرة وممارسات مختلفة. مثلاً، يُعدّ وجود اختلافات بين النظامين الاستعماريين الفرنسي والبريطاني مسألة مثيرة للجدل. يشير بعض المؤرخين إلى اختلافات في الفلسفات الاستعمارية. يُقال إنّ البريطانيين طبّقوا نظام (الحكم غير المباشر)، معتمدين على الزعماء المحليين ومحافظين على المؤسسات المحلية. في المقابل، يُقال إنّ الفرنسيين فضّلوا نظاماً إدارياً أكثر مركزية (الحكم المباشر). علاوةً على ذلك، غالباً ما فرضت القوى الاستعمارية أنظمتها القانونية على مستعمراتها. استفادت الدول التي تبنت القانون

1. Jean-François Klein, Pierre Singaravélou et Marie-Albane de Suremain, Frontières coloniales, in: Jean-François Klein, Pierre Singartvélou, Marie-Albane de Suremain, Cartographie Fabrice Le Goff, « Frontières coloniales », Atlas des empires coloniaux XIXe - XXe siècles, Autrement, Paris, p.42-43.

العام البريطاني من مؤسسات أفضل من تلك التي اختارت القانون المدني الفرنسي (لا سيما حماية أفضل للمستثمرين وحقوق الملكية، وأسواق مالية أكثر تطوراً). وتؤكد العديد من الدراسات التجريبية التفوق النسبي للمؤسسات البريطانية، إذ تُظهر أن المستعمرات البريطانية السابقة تتمتع بأداء نمو أفضل من المستعمرات الفرنسية السابقة. وأخيراً، تجدر الإشارة إلى موقف الإمبراطورية البريطانية المؤيد للتجارة الحرة تجاه التجارة الاستعمارية، والذي يتناقض مع النهج الحمائي الذي اتبعته قوى استعمارية أخرى. تبرز هذه الحجج وجود اختلافات جوهرية، لا سيما من حيث الجودة، بين المؤسسات الاستعمارية الفرنسية والبريطانية. وإذا استمرت هذه الاختلافات مع مرور الوقت، فقد يكون لها تأثير على حجم التجارة الحالي في المستعمرات السابقة. في الواقع، تُظهر العديد من الدراسات أن جودة المؤسسات (وخاصة حماية حقوق الملكية) تُعزز التجارة¹.

كما برز نوع آخر من الاستعمار ألا وهو الاستعمار الاستيطاني، وهدفه الأساس القضاء على السكان الأصليين واستبدالهم بهجرة غازية. برز هذا النوع بشدة مع غزو الأمريكتين وإبادة السكان الأصليين لأمريكا وأستراليا، واستمر في الجزائر. وسواء نجحت عملية الاستبدال هذه (أمريكا وأستراليا)، أم فشلت (الجزائر وجنوب أفريقيا)، فإنها تنطوي على احتمالية الإبادة الجماعية بالمعنى الذي صاغه رافائيل ليمكين Raphaël Lemkin : مشروع شامل لا يمكن اختزاله إلى مجزرة، حيث يدمر المستعمر الشعوب، وأسس وجودها، ويهاجم تراثها الثقافي، واقتصادها، وحاملتي المعرفة، والنخب الدينية، وأماكن العبادة، والمكتبات، باختصار، يدمر في نهاية المطاف بنية الحياة التحتية لحرمان المجتمعات من قدرتها على التجدد وضمّان سيادتها².

يُعد انتشار معظم الشعوب الأوروبية عبر أنحاء العالم أحد أبرز الأحداث في تاريخ البشرية؛ فقد أدى ذلك إلى إخضاع — إن لم يكن إلى انقراض — جميع الشعوب التي كانت تُسمى متخلفة أو قديمة أو بدائية تقريباً. كان العمل الاستعماري، خلال القرن التاسع عشر، الشكل الأهم والأكثر عواقب وخيمة الذي اتخذته هذا التوسع الأوروبي؛ فقد فرض، بترسخه، على تلك الشعوب وضعاً من نوع خاص جداً. ولا يمكن تجاهل هذه الحقيقة. فهي لا تحدّد ردود فعل الشعوب «التابعة» فحسب، بل تفسّر أيضاً بعض ردود فعل الشعوب التي تحرّرت. تطرح الحالة الاستعمارية مشاكل

1. José De Sousa et Julie Lochard, « Histoire coloniale et commerce international », Revue économique 2009/3 Vol. 60, p.635-645.

2. Hosni Kitouni, Histoire, mémoire et colonisation Démêler les complexités de la violence coloniale et ses séquelles en Algérie, Chihab Éditions, p.9-23.

للشعب الخاضع — الذي يستجيب لها بقدر ما يُسمح له بـ«لعبة» معينة — وللإدارة التي تمثل الأمة التي تدّعي الوصاية (وتدافع عن المصالح المحلية لهذه الأخيرة)، وللدولة حديثة الإنشاء التي يثقل كاهلها كل عبء استعماري؛ سواء كانت هذه الحالة حالية أو قيد التصفية، فإنها تنطوي على مشاكل محدّدة يجب أن تلفت انتباه عالم الاجتماع. وقد أظهرت فترة ما بعد الحرب إلحاح وأهمية المشكلة الاستعمارية في مجملها؛ وهي تتميز بمشاريع صعبة لإعادة الاستيلاء، وبتحرّرات وتنازلات مشروطة إلى حدٍّ ما؛ وهي تبشّر بمرحلة تقنية من الاستعمار تلي المرحلة السياسية والإدارية^١.

لاحظنا من خلال منصّة Cairn تركيز الدراسات الناطقة بالفرنسية على مسألة (المتخيلات الاستعمارية) أي التمثّلات والذهنيّات المصاحبة والمتشابكة مع المشاريع الاستعمارية. مثلاً، وجد السان سيمونيون، الذين كانوا شغوفين بمشاكل تنظيم العمل، وطامحين إلى إخضاع العالم للسيطرة التقنية، في المستعمرات، كما هو معروف، ميداناً تجريبياً ملائماً لنظرياتهم. وقد حرص بروسبير أنفانتين، على وجه الخصوص، بعد السنوات التي قضاها في مصر (١٨٣٣-١٨٣٦)، على تحديد الشروط القانونية والاقتصادية والتقنية لاستعمار الجزائر بطريقة عقلانية ومثمرة، على الرغم من الإقامة المخيبة للآمال التي قضاها هناك في ١٨٤٠-١٨٤١. في دراسة مطوّلة نُشرت عام ١٨٤٣، اعتمد على مهندسي الجسور والطرق والهندسة العسكرية لوضع أسس التنمية المستقبلية للمستعمرة. لم يخلُ البرنامج الواسع لتخطيط الأراضي وأعمال التجهيز الذي كلّفهم به من بعض الانجراف نحو الهوس الحسابي العزيز على قلوب المثاليين. وقد وزّع عائلات المستوطنين المدنيين على مجموعات من ثلاثة، واثنى عشر، وأربعة وعشرين، ومائة واثنين وتسعين، حيث كانت هذه الوحدة العليا، التي أطلق عليها اسم (الورشة)، تخضع لإشراف ثمانية وثلاثين مهندساً مصنّفين حسب رتبهم: كبير المهندسين، ومهندس من الدرجة الأولى، والثانية، والثالثة. انطلق خياله التنظيمي على مسارات غير معروفة في بلد أعلن أنّه جديد، ووصلت به إلى حدّ توقّع مبلغ المعاشات التقاعدية، والقائمة اليومية، والزي الرسمي للمستعمرين المستقبليين في الجزائر^٢.

1. Georges Balandier, « La situation coloniale : approche théorique », Cahiers internationaux de sociologie 2001/1 n° 110, p.9-29.

2. Jean-Marie Seillan, « Progrès technique et utopies coloniales », in: Jean-Marie Seillan, Aux sources du roman colonial (1863-1914) L'Afrique à la fin du XIXe siècle, Karthala, Paris, p.337-356.

نستنتج إذاً أنّ المشاريع الاستعماريّة هي بنى ماديّة بالأساس ولكنها تعتمد على متخيلات وأحلام وخيالات المشرفين والمنفّذين وهذا ما يمكن أن نسمّيها بالأدلجة أو الخيال الاستشراقي.

يُعَدّ الاستعمار الذي مورس بداية من أوّل القرن ١٩ حدثاً استثنائياً تماماً في التاريخ؛ ففي أقلّ من عشرين عاماً، استحوذت الإمبراطوريّة البريطانيّة على اثني عشر مليون كيلومتر مربع وستة وستين مليون نسمة — جالبةً معها مجموعةً من المفاهيم المبتكرة، وأهمّها مفهوم التوسّع. يستمدّ هذا المفهوم جذوره من مجال المضاربة التجاريّة، حيث يعني توسيع نطاق الإنتاج والأسواق. ووفقاً لحنّة أرندت، تنشأ الإمبرياليّة عندما تنتقل منطق اللامحدوديّة الهيكلية للرأسمالية إلى المجال السياسي. بعبارة أخرى، عندما تصل البرجوازيّة، صاحبة أدوات الإنتاج، إلى الحدود الوطنيّة، فإنّها تجعل من التوسّع الهدف النهائي للسياسة الخارجيّة. يتميّز هذا المحرك الأسمى للعصر الإمبرياليّ باستبدال السعي اللامحدود للسلطة بأهداف المصلحة الوطنيّة المحدودة، وبالتالي القابلة للتنبؤ، وهو مشروعٌ ينتقد جنونه يوجين ريختر Eugen Richter.

هذا المفهوم جديد تماماً، حيث إنّها الممرّة الأولى التي تقوم فيها القوى العظمى بغزوات دون الرغبة في تصدير قوانينها وعاداتها إلى المناطق التي تمّ غزوها، بل حتى بتطبيق قوانين قد تُعدّ جائرةً على أراضيها كما هو الحال مع نظام البوير في جنوب أفريقيا. وفي هذا السياق أنتج الاستعمار مفهوم (الإدماج)، حيث يكمن النجاح الحقيقيّ في تبني الشعوب المستعمرة للأدوات الفلسفيّة والقانونيّة الغربيّة لتوجيهها ضدّ الأوروبيين. هذه هي المفارقة الكامنة في الدولة القوميّة الإمبرياليّة: فحيثما استقرّت كقوّة غازية، ولدت وعياً وطنياً ورغبةً في السيادة لدى الشعوب التي غزتها؛ ممّا أدى إلى إفشال أيّ محاولةٍ حقيقيّةٍ لإنشاء إمبراطوريّة، ولكنه أظهر في الوقت نفسه بعض النور الذي انتشر خلال الاستعمار. ومن بينها مثلاً، انتشار اللغة الفرنسيّة في شبه جزيرة الهند الصينيّة، والشرق الأدنى، والمغرب العربيّ، وغرب أفريقيا، حيث أصبحت وسيلة تعبيرٍ موحّدة تتجاوز تعدّد اللهجات. ومع ذلك، فإنّ استخدام اللغة الفرنسيّة، لغة الثقافة والتعليم، ليس أمراً تافهاً؛ لأنّها تحمل في طياتها حريّةً معيّنة، موروثةً من تاريخها، وعقلانيّة، ثمرة الفلسفة الديكارتيّة، لا يمكن إلّا أن تؤثر على المتحدّثين بها. ومن الإسهامات الأخرى التي قدّمها الحقبة الاستعماريّة توحيد الجزائر — التي كانت في السابق مقسمةً إلى ثلاث مقاطعات — التي أصبحت واعيةً بذاتها وتوحّدت متجاوزةً الخصومات القبليّة وغيرها من الخلافات بين الأعيان¹.

1. Vinciane Joly, « La colonisation : un enfer pavé de bonnes intentions ? », Les Cahiers de l'Orient, 2017/4 N° 128, p.103-110.

برزت فرضية أخرى مهمة في الدراسات الفرنسية ترى الاستعمار وسيلة مهمة لإعادة تنظيم العالم. على الرغم من معارضة اليمين المتطرف الأوروبي للاستعمار في البداية، فإنه بدأ يرى تدريجياً في إقامة الإمبراطوريات الاستعمارية وسيلة لترسيخ عظمة كل أمة من أممه. وقد تعززت هذه النزعة القومية بفضل الصراعات الدبلوماسية والعسكرية المتعددة التي كان هدفها السيطرة على بلد أو منطقة جغرافية. وبالفعل، شهد الثلث الأخير من القرن التاسع عشر انطلاق سباق على إقامة الإمبراطوريات الاستعمارية؛ فقد قامت القوى الأوروبية الكبرى المختلفة في تلك الحقبة بتأسيس إمبراطوريات استعمارية غطت مجتمعة أراضي شبه الكرة الأرضية بأكملها.

والاستعمار ظاهرة أوروبية بامتياز، وعابرة للحدود الوطنية في آن واحد. يمكن عدّ حضور الدولة الأم إلى طاولة مؤتمر برلين عام ١٨٨٥ مانحاً صفة الانتماء إلى إمبراطورية استعمارية. وقد أتاح هذا المؤتمر تقسيم أفريقيا بين القوى الأوروبية الكبرى (فرنسا والمملكة المتحدة وإسبانيا والبرتغال وألمانيا وبلجيكا). لم تتوقف هذه الإمبراطوريات الاستعمارية عن التوسع بعد ذلك، ممّا أدى إلى استمرار التوترات بين الدول الأم ومع الإمبراطوريات الأخرى. كانت هناك في البداية توترات بين الفرنسيين والبريطانيين في مصر، وبشكل خاص في السودان مع حادثة فاشودة عام ١٨٩٨، التي وضعتهم في مواجهة دبلوماسية وعسكرية. كما نشأت توترات بين فرنسا وإيطاليا في عام ١٨٨١ حول السيطرة على تونس، ممّا أدى إلى انضمام إيطاليا إلى التحالف العسكري والدبلوماسي بين ألمانيا والنمسا-المجر (التحالف الثلاثي)^١، لكن الأهم هنا هو الفكرة العامة بوصفها ركناً راسخاً، وهي توظيف مؤسسة الاستعمار كوسيلة لإعادة تنظيم العالم من وجهة نظر غربية أولاً وآخرًا.

تتوفر دراسات تاريخية عالية الجودة حول النظريات والمذاهب، وحول (الفكرة الاستعمارية). كما درست صورة الإمبراطورية في الرأي العام بشكل مكثف. ولكن، حتى الآن، لا تزال العلاقات بين الثقافة والاستعمار غير محللة بشكل كافٍ؛ ويعود ذلك جزئياً إلى أن التاريخ ظلّ لمدّة طويلة جدّاً تاريخاً حديثاً يركز على لحظات الأزمات وعمليات التحرر من الاستعمار، وإلى أن النقاشات العلمية كانت مفرطة في التركيز على مسألة الإمبريالية، حيث تم إعطاء الأولوية للأبعاد الاقتصادية. بالتأكيد، يجب على أيّ كتاب مدرسي أن يشير في بضع صفحات إلى التعليم والأدب، وإذا كان

1. Stéphane François, « Le colonialisme comme moyen d'ordonner le monde », in: Stéphane François, Géopolitique des extrêmes droites Logiques identitaires et monde multipolaire, Le Cavalier Bleu, p.71-74.

يهدف إلى أن يكون حديثاً، إلى السينما أو حتى التلفزيون. لكن لم يتم تجاوز ذلك لمدة طويلة. وبسبب تصوّر نخبويّ للغاية للثقافة والسياسة، تمّ تجاهل المواقف الشعبيّة، أو لم يتم استيعابها إلاّ من خلال استطلاعات الرأي واستناداً إلى استفساراتٍ مرتبطة بحرب الجزائر. جاءت الابتكارات في هذا المجال بشكلٍ أساس من الأبحاث باللغة الإنجليزيّة. وهي تنتشر في المدارس الفرنسيّة، مدفوعة بالاهتمام بالتاريخ الثقافيّ. الأهمّ هنا لا يمكن عزل الظاهرة الاستعماريّة عن التأثيرات الثقافيّة سواء خلال الاستعمار أو بعده، وسواء لدى المجتمعات المُستعمرة أو المستعمرة^١.

بيّنت الدراسات المكتوبة باللغة الفرنسيّة الأساليب القاسية التي وظّفها الاستعمار لترسيخ مكانته وخاصّة في الأماكن التي خضعت لاستعمار الفرنسي. لا شكّ في أنّ منطقة أفريقيا الشريّة (AEF) والكاميرون، مثلاً، كانتا تعانيان بالفعل من العمل القسريّ وجميع أنواع التجاوزات منذ عقود. تقول المؤرّخة كاثرين كوكويري-فيدروفيتش Catherine Coquery-Vidrovitch إنّ استغلال أقاليم بأكملها في منطقة أفريقيا الشريّة كان لمدة طويلة مبنياً على الإكراه، وقائماً على الجريمة. في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كان القتل على نطاق واسعٍ أمراً شائعاً هناك. فقد كانت عمليّات أخذ الرهائن والعقوبات الجسديّة والضغط بجميع أنواعها جزءاً من أسلوب استغلالٍ حقيقيّ.

في عشرينيّات وثلاثينيّات القرن الماضي، شجب ألبرت لوندريس Albert Londres في كتابه (أرض الأبنوس)، وأندريه جيد André Gide في كتابه (رحلة إلى الكونغو)، ومارسيل هوميت Marcel Homet في كتابه (الكونغو، أرض المعاناة) وغيرهم الكثير، شجبوا الانتهاكات اللاإنسانيّة، وشهدوا على البؤس الشديد الذي تسبّب فيه آنذاك حمل البضائع وبناء خطّ السكك الحديدية بين الكونغو والمحيط، على وجه الخصوص. كانت شركات استغلال الأخشاب والمطاط موضع انتقادٍ منذ مدّة طويلة من قبل منظّمات مثل رابطة حقوق الإنسان. وسواء صدرت هذه الانتقادات عن ألبرت لوندريس أو رابطة حقوق الإنسان أو عصبة الأمم، فقد لفتت انتباه الرأي العام الدولي إلى الانتهاكات وقوّضت أسس الاستعمار ذاتها. علاوةً على ذلك، كان الكومترن والحركات القوميّة المناهضة للاستعمار، بل حتى جهات فاعلة دوليّة أخرى، يردّدونها^٢.

1. Claude Liauzu, Leila Blili, Jacqueline Dahlem, Reine-Claude Grondin, Vincent Joly, Solofo Randrianja et Trinh Van Thao, « Culture et colonisation », in: Colonisation : droit d'inventaire, Sous la direction de Claude Liauzu, Armand Colin, Oaris, p.173-200.

2. Éric T. Jennings, « Pratiques coloniales et impératifs de guerre », in: Éric T. Jennings, La

ولهذا تكمن الأسباب البعيدة لعملية التحرر من الاستعمار في طبيعة الغزوات الاستعمارية نفسها، ولو لمجرد أنها هي التي حدّدت حدود الدول المستقبلية بدرجات متفاوتة من السيادة في ستينيات القرن العشرين. وهكذا تمّ تقسيم الاتّحادات السياسية المتكاملة نسبياً، التي غالباً ما كانت تدار من قبل دول ما قبل الاستعمار منذ عدّة قرون، بين المستعمرات. كان هذا هو الحال بالنسبة للمملكة المسيحية في الكونغو، حيث يقع جزءٌ منها في أنغولا الحالية، وجزءٌ آخر في جمهورية الكونغو، وجزءٌ ثالث في جمهورية الكونغو الديمقراطية، وجزءٌ رابع في الغابون. وينطبق الأمر نفسه على المجموعات الثقافية واللغوية ذات الأبعاد القبلية أو الإثنية، التي تمّ تقسيمها مثلاً بين السنغال، المستعمرة الفرنسية، وغامبيا الناطقة باللغة الإنجليزية.

تشكّل العنف الغزوات الاستعمارية وأشكال المقاومة الأفريقية الأولى جوهر الأيقونات القومية التي تطوّرت بشكلٍ كاملٍ في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ورغم بعض التلاعبات التاريخية، فإنّ هذا ينطبق على ساموري توري Samori Touré (١٨٣٠-١٩٠٠)، الذي اصطدمت طموحاته في بناء إمبراطورية في أواخر القرن التاسع عشر في غرب إفريقيا، بتوسّع النفوذ الاستعماري الفرنسي في المنطقة نفسها. وينطبق الأمر نفسه على بيهانزين Behanzin (١٨٤٤-١٩٠٦)، الملك الحادي عشر لأبومي، التي كانت تُعرف سابقاً باسم داهومي وأصبحت حالياً بنين. وفيما بعد، كانت أساليب الاستعمار حاسمة أيضاً في عمليات الاستقلال سواء عبر العنف المتشابك مع حروب الاستقلال أو عبر المراهنة على النخب المحلية الموالية أو عبر فرض أمر واقع (اقتصادي، اجتماعي، معاهدات، سياسي...)، في زمن الدول القومية زمن ما بعد الاستعمار^١. إذاً مثلّ العنف ركناً رئيساً لمؤسسة الاستعمار، سواء أكان مادياً أم رمزياً، خلال الاستعمار الفعلي أو غير المباشر. فقد شكّل لبّ رحي السياسات لدى المستعمر، وذاكرة مشروخة ومجروحة لدى المستعمر.

اهتمّت المقالات المكتوبة باللغة الفرنسية بالعلاقة المتوترة بين فرنسا والاستعمار، حيث لم تتوقف النقاشات حول الماضي الاستعماري لفرنسا عن احتلال الفضاء العام. ويأتي هذا الظهور من أماكن ومجموعات متنوعة: من الجمعيات التي تضم فاعلين مرتبطين بالتاريخ الاستعماري

France libre fut africaine, Perrin, Paris, p.221-255.

1. Pierre Brocheux, Samya El Mechat, Marc Frey. Karl Hack, Arnaud Nanta, Solofo Randrianja et Jean-Marc Regnault, « Conquêtes coloniales et résistances », in: Pierre Brocheux, Les décolonisations au XXe siècle La fin des empires européens et japonais, Armand Colin, p.195-211.

(وهم العائدون كرهاً إلى الوطن، الحركيون، المستعمرون السابقون، المحاربون القدامى في حرب الجزائر...)؛ من الدولة من خلال إقامة (أماكن للذاكرة) أو التصويت على قوانين تنظم (الذاكرة الرسمية)، ومن الأوساط الفكرية والأكاديمية من خلال نشر العديد من الكتب والمقالات، أو حتى من وسائل الإعلام، التي تغطي بانتظام القضايا المعاصرة المرتبطة، بشكل مباشر أو غير مباشر، بالحقبة الاستعمارية، دون نسيان الأعمال الأكاديمية ودور المؤسسات العلمية وأهمها الجامعات وأقسام التاريخ فيها.

هذا الظهور على الساحة للقضية الاستعمارية ونتيجتها الحتمية، القضية ما بعد الاستعمارية -عبر النقاشات المتعلقة بالهجرة أو بشأن المساحة الأفريقية الخاصة بفرنسا- ليس مصادفةً أو اعتباطاً، بل هو أعراض (عودة المكبوت). إن إخفاء هذا الجزء من التاريخ الوطني لمدة طويلة يفسر الطابع الفوضوي والقهرى لكشفه، الذي يتجلى اليوم في المواجهة بين ذكريات متنافسة، تحاول كل منها فرض حصتها من الحقيقة. لكن هذا المدّ والجزر يتجاوز بكثير التنافس بين الذكريات؛ فالتاريخ الاستعماري والذكريات التي تشكله اجتماعياً تمس فرنسا في هويتها الجماعية ذاتها، وتطرح تساؤلات حول الطرق التي يتم بها تمثيل تاريخها الوطني الذي يشكل الفعل الاستعماري فيه لحظةً فارقة¹.

يرسخ المشروع الاستعماري حضور متغير آخر مهم، ألا وهو القانون؛ فالهيمنة الاستعمارية ليست ديناميكية قوة مباشرة، تضع المستعمر في مواجهة المستعمر، بل هي بالأحرى تفاعل معقد بين جهات فاعلة، يؤدي كل منها دوره، سواء أفي المركز أم في المستعمرات. في المستعمرات، ينصب اهتمام الجيش بالدرجة الأولى على الهيمنة، وهي سمة بارزة لسلطة الدولة من خلال إمبراطوريتها، ولا ينظر إلى الاستعمار إلا كعامل مُزعزع للاستقرار. أما المستعمرون، فيعدّون الهيمنة شرطاً أساسياً للاستعمار، فالاستعمار يُبرر الهيمنة (أي الهيمنة من أجل الاستعمار). وغالباً ما تتخذ السلطات المدنية في المستعمرات موقفاً وسطاً. أما المستعمرون، فيتأرجحون بين التعاون والمقاومة، تبعاً لمصالحهم الذاتية أو ميزان القوى.

في فرنسا الأم، يتشكل النقاش بفعل الشبكات المركزية المتاحة لجماعات المصالح الاستعمارية، وبالمسائل المالية والميزانية، وبمدى إدراج المثل الجمهورية، وكذلك المثل الليبرالية، لا سيما فيما

1. Nicolas Bancel, Pascal Blanchard et Sandrine Lemaire, La fracture coloniale : La société française au prisme de l'héritage colonial, La Découverte, p.9-30.

يتعلّق بالملكيّة، في النقاش. في هذه اللعبة، تبقى النتيجة غير مؤكّدة، وليست مضمونة بأيّ حال من الأحوال للمستعمرين، الذين يجدون أنفسهم في حالة من (العزلة)؛ لذا، ليس من المستغرب أن يكون القانون الاستعماريّ دائماً تحت ضغط مستمر، إذ يُعاد بناؤه وتفكيكه وإعادة بنائه في عملية متواصلة، وفقاً لديناميكيات القوّة المتغيّرة بين جماعات المصالح، تاركاً مسألة الأهداف النهائيّة للاستعمار دون حسم. من السهل دائماً تجاهل هذه التأخيرات والتوترات المحيطة بتطوّر القانون الاستعماريّ، التي تُعدّ في ظلّ نموذج الهيمنة، مجرد تضليل أيديولوجيّ. ولا يزال من الممكن أيضاً وضع إطار للهيمنة الاستعماريّة من خلال القانون، عبر تحليل نصوص مختارة (فالقانون -في نهاية المطاف- نصّ)، ولكن من خلال إخضاع نصوص أخرى، وجهات فاعلة في القانون وممارساتها، لمزيد من التدقيق.

ويمكن استكشاف الفكرة، التي يدعمها أنصار نظريّات ما بعد الاستعمار، ومفادها أن نهاية الهيمنة الاستعماريّة لم تكن تعني زوال أدواتها القانونيّة، بل فتحت الطريق أمام شكل من أشكال الاستمراريّة. تجد هذه الأدوات إعادة استخدام في سياقات هيمنة جديدة، سواء من جانب المستعمر السابق - وهذه هي النقطة التي تؤكّد عليها الدراسات ما بعد الاستعماريّة - أو من جانب المستعمرين السابقين، الذين يستقون من القانون الاستعماريّ مع قطع صلتهم به في الوقت نفسه. ومن هنا تأتي المواقف المتردّدة أو الغامضة للمؤسّسات الأكاديميّة ما بعد الاستقلال في تناولها للحقبة الاستعماريّة ومؤسّساتها وقانونها، متأرجحة بين المحو والاعتراف. ومع ذلك فإنّ الأدوات القانونيّة التي وُضعت في سياقات استعماريّة (الجزائر مثلاً) يمكن أن تجد أهميّة متجدّدة في ضوء التطوّرات القانونيّة المعاصرة التي لا تقتصر على سياقات الهيمنة، بل تُشير إلى عودة التعدديّة القانونيّة¹.

من ناحية أخرى تناقض المشروع الاستعماريّ الغربيّ مع السرديّات المنتجة في الغرب ذاته حول الحضارة والحق والواجب والأخلاق والحرية، وهذا ما جعل من هذا المشروع مصدر توتر لا في تاريخ الغرب فقط، بل في حاضره ومستقبله. فقد كان استعمار القرنين التاسع عشر والعشرين امتداداً للتوسّع الأوروبي في القرون الثلاثة السابقة، والذي تميّز بشكل خاصّ بإبادة جزء كبير من سكّان الأمريكيتين وتجارة الرقيق واستعباد الأفارقة. وقد أدان فلاسفة عصر التنوير، الذين دافعوا عن حقوق الإنسان، هذه الممارسات بشكل شبه عالميّ، وأسهمت هذه الإدانة في تطوير مفهوم

1. Faire l'histoire du droit colonial Cinquante ans après l'indépendance de l'Algérie, Sous la direction de Jean-Philippe Bras, Karthala, Paris, p.9-22.

حقوق الإنسان، الذي لا يفصل عنه. وبوصفها أول من استكشف العالم، أدركت أوروبا على الفور الفوائد التي يمكن أن تجنيها من تفوق جيوشها. أولاً، في الأمريكتين، أسفر الغزو عن تدمير شبه كامل لحضارات السكان الأصليين، وما يُمكن عدّه (إبادة عرقية) تخللتها مجازر جماعية.

يُعتقد أنّ عدد السكان الأصليين، الذي قدّر بما بين ٤٠ و ١٠٠ مليون نسمة عام ١٥٠٠، انخفض إلى حوالي ١٠ ملايين نسمة بحلول عام ١٦٥٠، أي بانخفاض لا يقلّ عن ٧٥٪، نتيجةً للأوبئة والمجازر والعمل القسري والمجاعات والتفكك الاجتماعي، فضلاً عن الشعور العميق باليأس الذي خلّفته صدمة الغزو. خلال هذه الموجة الأولى من الغزو الاستعماري، تأسست تجارة الرقيق عبر المحيط الأطلسي، التي كانت فرنسا إلى جانب إنجلترا والبرتغال، من أبرز المستفيدين منها في ظلّ النظام القديم. في الفترة ما بين عامي ١٥٠٠ و ١٨٠٠، تمّ ترحيل ما يقرب من ٥ ملايين أفريقيّ إلى منطقة البحر الكاريبي لتشكيل مجتمعٍ من العبيد كان يتمّ تجديده باستمرار، والذي لم يتبق منه سوى حوالي مليوني شخصٍ بحلول عام ١٨٠٠ تقريباً، وذلك بسبب استغلاله الوحشيّ وارتفاع معدل الوفيات إلخ. أمّا في المرحلة الثانية من تاريخ الاستعمار فقد مثّل استنزاف المستعمرات وقوداً حيويّاً ووجوديّاً للرأسمالية والثورة الصناعية. إذًا فوجود الاستعمار ذاته هو نقضٌ لكلّ المدوّنات الأخلاقية والقانونية التي أنتجها الغرب ذاته^١.

الخاتمة

سعيًا في هذا البحث إلى تبين حجم التراكم العلميّ في المؤسّسات العلمية الغربية المرتبط بدراسات الاستعمار، ولهذا قمنا بجرد ودراسة موقع JSTOR الناطق باللغة الإنجليزية وهو مخصّص في أغلبه للمجلّات الأنجلوسكسونية، وموقع Cairn وهو موقعٌ فرنسيّ وموجّهٌ لنشر المجلّات المكتوبة بالفرنسية. وقد استخلصنا أفكاراً مهمّةً خلال هذه الرحلة الفكرية وهي:

— مثل موضوع الاستعمار هاجساً بحثيّاً أساسيّاً لدى الباحثين الناطقين باللغة الفرنسية أو الإنجليزية حيث تنتج آلاف الأعمال سنويّاً، ونُرجع ذلك إلى أهمية هذه المؤسّسة في نشأة الثورة التجارية والصناعية والرأسمالية، ولتشابكها العضويّ مع مفهوم الحداثة، وارتباطها بالأحداث التاريخية الكبرى وشبكات مصالح الغرب سواء قبل أو خلال أو بعد الاستعمار. فأيّما وجدت المصلحة الاقتصادية وُجدت المعرفة والرغبة في الفهم.

1. Gilles Manceron, Marianne et les colonies Une introduction à l'histoire coloniale de la France, La Découverte, Paris, p.22-44.

- لا يمكن أن نفهم الاستعمار إلا من خلال باب شبكات المصالح الاقتصادية، فهو مؤسسة ربحية بامتياز.
- تنوعت أساليب الاستعمار، وتعددت واختلقت طرق إنجاحه أو شرعته. فالاستعمار الذهني يتخلل الاستعمار النفسي، ويتعاقد مع الاستعمار المجالي. فلا يمكن مثلاً أن ينجح استعمار من دون إنتاج صور نمطية ووصوم اجتماعية حول المستعمر.
- خضعت مجمل المشاريع الاستعمارية إلى توازنات دولية، وأسهم ذلك إما بالإسراع بإنجازها (الجزائر سنة ١٨٣٠ مثلاً)، وإما بتعطيلها (المغرب ١٩١٢)، وإما بعدم إنجاحها (الحجاز مثلاً).
- غلب على الدراسات المنشورة في منصة JSTOR والمكتوبة باللغة الإنجليزية الطابع الاستراتيجي، والبرود التحليلي، وتجنب التبرير، ويمكن أن نرجع ذلك إلى تأخر الولايات المتحدة -بحكم أن JSTOR هي منصة أمريكية وتحتوي على العدد الأكبر من المجلات الأمريكية- في اللحاق بركب الدول الاستعمارية مما خفف مسؤولياتها الأخلاقية خاصة تجاه مشاريع القرن ١٩ والنصف الأول من القرن ٢٠. بالمقابل، تبيّن لنا ميل المقالات المكتوبة باللغة الفرنسية إلى التبرير أو الأدلجة أو الحنين إلى الماضي وتخلّل هاجس المصالحة عبر التاريخ في عدد كبير من المقالات، حيث تتحوّل الذاكرة إلى وسيلة للتهذبة الاجتماعية والتاريخية؛ ولهذا نستنتج هنا أن المؤسسات العلمية تنتج معرفة، وفي الآن ذاته يصعب عليها إخفاء رهانات زمانها السياسية والاقتصادية.

قائمة المصادر والمراجع

1. Steven Sabol, "The Touch of Civilization": Comparing American and Russian Internal Colonization, University Press of Colorado, 2017, p.171-204.
2. Elise Huillery, "The Black Man's Burden: The Cost of Colonization of French West Africa", The Journal of Economic History Vol. 74, No. 1 (MARCH 2014), pp. 1-38.
3. Tatah Mentan, Africa in the Colonial Ages of Empire: Slavery, Capitalism, Racism, Colonialism, Decolonization, Independence as Recolonizati, Langa RPCIG, 2018, p.2-32, p.443-495.
4. Geng Yang, Qixue Zhang and Qi Wang, "The Essence, Characteristics and Limitation of Post-Colonialism: From Karl Marx's Point of View", Frontiers of Philosophy in China Vol. 1, No. 2 (Jun., 2006), pp. 279-294.
5. Maureen S. Hiebert, "University Teaching of Indigenous Genocides in North America", Genocide Studies International Vol. 16, No. 1, Special Issue on The Future of Genocide Education (Spring 2022), pp. 18-27.
6. Frank Schumacher, "Embedded Empire", Journal of Modern European History Vol. 14, No. 2, The Imperial Cloud (2016), pp. 202-224.
7. Bruce Dorsey, "A Gendered History of African Colonization in the Antebellum United States", Journal of Social History Vol. 34, No. 1 (Autumn, 2000), pp. 77-103.
8. María Lugones, "Gender and Universality in Colonial Methodology", Critical Philosophy of Race Vol. 8, No. 1-2, (2020), pp. 25-47.
9. JACOB TROPP, "U.S. Indian Affairs, British Imperial Africa, and Transcolonial Dialogues over Conservation and "Native Development" in the 1930s", Journal of World History Vol. 33, No. 3 (SEPTEMBER 2022), pp. 459-489.
10. Swati Parashar, "Colonial legacies, armed revolts and state violence", Third World Quarterly Vol. 40, No. 2, SPECIAL ISSUE: Empire to Globalisation: Violence and the Making of the Third World (2019), pp. 337-354.
11. Andrew R. Reynolds, "Introduction: Colonization, Modernity, and the Editorialization of the Americas", Textual Cultures, Vol. 13, No. 2 (Fall 2020), pp. 1-9.
12. Sociology and Empire: The Imperial Entanglements of a Discipline, EDITED BY GEORGE STEINMETZ, Duke University Press, 2013, p.489-498.
13. Robert A. Saunders, "Reimagining the colonial wilderness", Cultural Geographies Vol. 26, No. 2 (April 2019), pp. 177-194.

14. Nate Probasco, "Cartography as a Tool of Colonization: Sir Humphrey Gilbert's 1583 Voyage to North America", *Renaissance Quarterly* Vol. 67, No. 2 (Summer 2014), pp. 425-472.
15. Paul Frymer, *Building an American Empire: The Era of Territorial and Political Expansion*, Princeton University Press, 2017, p.220-262.
16. MARK E. CAPRIO, *Japanese Assimilation Policies in Colonial Korea, 1910-1945*, University of Washington Press, 2009, p.198-212.
17. JI YEON HONG and CHRISTOPHER PAIK, "Colonization and education: exploring the legacy of local elites in Korea", *The Economic History Review* Vol. 71, No. 3 (AUGUST 2018), pp. 938-964.
18. Mårten Snickare, *Colonial Objects in Early Modern Sweden and Beyond: From the Kunstkammer to the Current Museum Crisis*, Amsterdam University Press, 2022, p.13-22.
19. COREY LEE WRENN, *Animals in Irish Society: Interspecies Oppression and Vegan Liberation in Britain's First Colony*, State University of New York Press, 2021, p.1-18.
20. Simon E. Connor, Jacqueline F.N. van Leeuwen, Tammy M. Rittenour, Willem O. van der Knaap, Brigitta Ammann, Svante Björck and José María Fernández-Palacios, "The ecological impact of oceanic island colonization — a palaeoecological perspective from the Azores", *Journal of Biogeography* Vol. 39, No. 6 (June 2012), pp. 1007-1023.
21. Mariana Miggiolaro Chaguri, "Essayism and Sociology in Brazil", *The American Sociologist* Vol. 51, No. 3, *Social Essayism and Sociology in Brazil* (September 2020), pp. 306-317.
22. Hubert Bonin, « Les héritages de la première colonisation (du début du xixe siècle au xxie siècle) », in: Hubert Bonin, *L'empire colonial français : de l'histoire aux héritages*, Armand Colin, 2025, p.38-50.
23. Pierre Singaravélou, « Les stratégies d'internationalisation de la question coloniale et la construction transnationale d'une science de la colonisation à la fin du xixe siècle », *Monde(s)*, 2012/1 N° 1, p.135-157.
24. Bernard Phan, *Colonisation et décolonisation (XVIe-XXe siècle)*, Presses Universitaires de France, 2017, p.105-108.
25. Christelle Taraud, *Idées reçues sur la colonisation La France et le monde : XVIe-XXIe siècles*, Le Cavalier Bleu, Paris, 2018, p.11-12, p.155-156.

26. Jean-François Klein, Pierre Singaravélou et Marie-Albane de Suremain, Frontières coloniales, in: Jean-François Klein, Pierre Singaravélou, Marie-Albane de Suremain, Cartographie Fabrice Le Goff, « Frontières coloniales », Atlas des empires coloniaux XIXe - XXe siècles, Autrement, Paris, 2018, p.42-43.
27. José De Sousa et Julie Lochard, « Histoire coloniale et commerce international », Revue économique 2009/3 Vol. 60, p.635-645.
28. Hosni Kitouni, Histoire, mémoire et colonisation Démêler les complexités de la violence coloniale et ses séquelles en Algérie, Chihab Éditions, 2024, p.9-23.
29. Georges Balandier, « La situation coloniale : approche théorique », Cahiers internationaux de sociologie 2001/1 n° 110, p.9-29.
30. Jean-Marie Seillan, « Progrès technique et utopies coloniales », in: Jean-Marie Seillan, Aux sources du roman colonial (1863-1914) L'Afrique à la fin du XIXe siècle, Karthala, Paris, 2006, p.337-356.
31. Vinciane Joly, « La colonisation : un enfer pavé de bonnes intentions ? », Les Cahiers de l'Orient, 2017/4 N° 128, p.103-110.
32. Stéphane François, « Le colonialisme comme moyen d'ordonner le monde », in: Stéphane François, Géopolitique des extrêmes droites Logiques identitaires et monde multipolaire, Le Cavalier Bleu, 2025, p.71-74.
33. Claude Liauzu, Leila Blili, Jacqueline Dahlem, Reine-Claude Grondin, Vincent Joly, Solofo Randrianja et Trinh Van Thao, « Culture et colonisation », in: Colonisation : droit d'inventaire, Sous la direction de Claude Liauzu, Armand Colin, Oaris, 2004, p.173-200.
34. Éric T. Jennings, « Pratiques coloniales et impératifs de guerre », in: Éric T. Jennings, La France libre fut africaine, Perrin, Paris, 2014, p.221-255.
35. Pierre Brocheux, Samya El Mechat, Marc Frey, Karl Hack, Arnaud Nanta, Solofo Randrianja et Jean-Marc Regnault, « Conquêtes coloniales et résistances », in: Pierre Brocheux, Les décolonisations au XXe siècle La fin des empires européens et japonais, Armand Colin, 2012, p.195-211.
36. Nicolas Bancel, Pascal Blanchard et Sandrine Lemaire, La fracture coloniale : La société française au prisme de l'héritage colonial, La Découverte, 2005, p.9-30.
37. Faire l'histoire du droit colonial Cinquante ans après l'indépendance de l'Algérie, Sous la direction de Jean-Philippe Bras, Karthala, Paris, 2015, p.9-22.
38. Gilles Manceron, Marianne et les colonies Une introduction à l'histoire coloniale de la France, La Découverte, Paris, 2005, p.22-44.